منهج النقد التاريخي عند ابن حزم
نموذج من نقد توراة اليهود

الدكتور
حامد طاهر
الأستاذ المساعد بقسم
الدعوة والثقافة الإسلامية)

في أوربا ، أدرك العلماء بأن التقدم لايتم إلا بالعلم ، وأن العلم لايتطور إلا بالمنهج . . لذلك فقد اهتموا كثيراً بالحديث النظري عن قواعد المناهج ، وخصائصها ، وإمكانياتها .
أما علماء المسلمين فقد انصبت جهودهم على التطبيقات العمليه للمناهج التى استلهموها من القرآن الكريم ، والتى تطورت مع تطور العلوم المنبثقة عنه .
ومن ثم ، فإن « استخلاص عناصر المنهج » من كتاباتهم يعُدّ ـ فى رأينا ـ خطوة أساسية نحو التصور الصحيح لها .
ومنهج النقد التاريخى عند ابن حزم الأندلسي من أبرز الأمثلة على ذلك . فهو موجود لديه بمعظم عناصره الحديثة ، ولكنه مختبيء خلف التطبيق الذى قام به لبيان الزيف فى نسخة التوراة التي كانت بأيدي اليهود على عصره .
والهدف الأساسي من هذا البحث هو الكشف عن عناصر ذلك المنهج .

تمهيد :

يعتبر ابن حزم الأندلسي (٣٨٤ - ٤٥٦ هـ) واحداً من أعلام الحضارة الإسلامية بوجه عام ، ومن أبرز علماء الأندلس على نحو خاص . وقد تجلّت في شخصيته تلك الظاهرة الموسوعية التي كانت سمة واضحة لدى معظم علماء المسلمين . فقد كتب في الفقه ، وأصول الفقه ، والأنساب ، والتاريخ ، والمنطق ، ومقارنة الأديان ، كما كتب في الأخلاق ، وترك كتاباً متميزاً في الأدب العربي هو « طوق الحمامة ، في الألفة والألاف » . ومع تمكنه العلمي الواضح ، كان ابن حزم شاعراً وأديباً ، على درجة عالية من الحسّ المرهف ، والبيان القادر على التأثير . ومما هو جدير بالملاحظة أنه لم يمرّ على واحد من المجالات السابقة مروراً عابراً ، بل إنه تعمّقه ، وبدا كما لو كان متخصصا فيه وحده .

يضاف إلى ذلك ، أن ابن حزم قضى جزءاً من حياته في الاشتغال بالسياسة وأمور الحكم . فقد عُيّن وزيراً أكثر من مرة ، لكن ظروف الأندلس على عصره كانت مضطربة (انحلال الخلافة الأموية وبداية عصر ملوك الطوائف) وهذا ما جعله يهجر السياسة تماماً ، ويتفرغ للبحث العلمي ، والتأليف الغزير : روى ابنه أبو رافع أن مصنّفات والده بلغت الأربعمائة ، وأن عدد أوراقها بلغ ثمانية ألف ورقة[1] .

لم تصلنا حتى الآن كل مؤلفات ابن حزم ، شأنه في ذلك شأن معظم علماء المسلمين الذين تميزوا بغزارة الإنتاج . لكن ما وصلنا ، وتم بالفعل طبعه أو تحقيقه يكفي إلى حد كبير في تأكيد مكانة ابن حزم العلمية ، واستخلاص أصول مذهبه وقواعد منهجه .

يمثل انتاج ابن حزم عالماً يكاد يكون مستقلا بنفسه . وهذا يعني أنه على الرغم من تعدد مجالاته وتنوعها إلى حد كبير ، فإن له - ككلٍ - حدوده المتميزة . والذي يعيش طويلاً مع هذا

---

(١) الصلة لابن بشكوال . رقم ٨٨٨ ، ورقم ٩٤٤ .

الإنتاج يكاد يصبح صديقا لابن حزم ، والسبب فى ذلك أنه لايخفى شخصيته الإنسانية عن القارىء . فكثيرا ما نجده يظهر بين السطور ليتحدث عن بعض مؤلفاته السابقة ، أو الموضوعات التي ينوي الكتابة عنها فيما بعد . وأحياناً ما يتحدث عن مناظرة أجراها مع عالم آخر أو حادثة شخصية وقعت له ، وهي ذات ارتباط بالموضوع الذي يتناوله . وأخيراً فإن ابن حزم لا يتردد عن استخدام أقسى الألفاظ في الهجوم على خصومه ، دون أن يخلو ذلك بالطبع من تهكم وسخرية ، يطبعان أسلوبه بطابع خاص . وهكذا يتحول القارىء الدؤوب لابن حزم إلى جليس يصغى إليه ، ويتفاعل معه .

وقد بدأت الدراسات المتعمقة عن ابن حزم منذ بداية القرن العشرين أو قبل ذلك بقليل . وقد كان المستشرقون أسبق من المسلمين في هذا المجال . وأهم ثلاث دراسات أوروبية تمت حول ابن حزم دراسة جولد تسيهر بالألمانية سنة ١٨٨٤[٢]، ودراسة آسين بلاثيوس بالأسبانية سنة ١٩٢٩[٣]، ودراسة روجر أرنالديز بالفرنسية سنة ١٩٥٦[٤] ، وهى كلها لم تترجم حتى الآن إلى اللغة العربية .

أما في العالم العربي فحسبنا أن نشير ـ من بين الدراسات العديدة التي دارت حول ابن حزم ـ إلى دراسة فضيلة الشيخ محمد أبو زهرة ، وهى بعنوان « ابن حزم : حياته وعصره ، آراؤه وفقهه » ١٩٥٤[٥]، وهو يركز فيها على جانبه الفقهي والأصولي بالاعتماد على كتابيْه الكبيريْن : المحلّي . والإحكام في أصول الأحكام . أما الدراسة الأخرى فهي لزكريا ابراهيم ، بعنوان « ابن حزم الأندلسي ، المفكر الظاهري الموسوعي » ١٩٦٦[٦]. وتتميز هذه الدراسة ـ بالرغم من طابعها العام ـ بتناول معظم الجوانب العلمية في شخصية ابن حزم .

وفي كل الدراسات التي تمت حول ابن حزم ، استوقفت الباحثين ظاهرةُ وجود منهج محدّد

---

(٢) Die Zähiriten, Leipzig, 1884.

(٣) Aben hazam de Cordoba y su Historia Critica de las ideas religiosas, Madrid, 1927-1929.

(٤) Grammaire et Théologie chez Ibn Hazm de Cordoue, Paris, 1956.

(٥) نشرته دار الفكر العربي بالقاهرة ١٩٥٤ .

(٦) الكتاب رقم ٥٩ من سلسلة أعلام العرب ، القاهرة ١٩٦٦ .

لديه ، وإصراره المستمر على تطبيق هذا المنهج في كل المجالات التي تعرّض لها بالبحث . وهذا المنهج واضح تماماً في الفقه ، وأصول الفقه ، وعلم الكلام ، والتاريخ ، والجدل ، ومقارنة الأديان ، وحتى في اللغة والأدب .

ولا ينبغي أن يعتبر « المنهج » أمراً ثانوياً في مجال البحث العلمي . فإن وضوحه ـ فضلا عن وجوده ـ في ذهن الباحث هو الذي يضفي على إنتاجه التماسك والتطور اللازمين لتقدم عمله ، ويجعل منه لبنة حقيقية تضاف إلى صرح العلم ، بدلاً من أن تكون عالة عليه ، وما أشبه ذلك بقطع الحجارة والأخشاب والرمل والحصى الملقاة على الأرض ، ثم بها كلها وقد انتظمتها خطة هندسية « منهج » فتجمعها جمعاً مترابطاً ، لكي ينهض منها بيت ينتفع به الناس .

ونحن نرى أن ابن حزم لديه المنهج ، وهذا هو السبب في أنه أضاف إلى حركة العلوم الإسلامية شيئاً جديداً . تماماً كما كان لدى الشافعي منهج ، ولدى الغزالي منهج ، ولدى ابن تيمية منهج ، ولدى ابن خلدون منهج . .

المنهج لدى المسلمين :

كل ما في الإسلام يبدأ من القرآن الكريم . ومن المقرر أن هذا الكتاب الخالد قد زوّد المسلمين بمنهج للمعرفة يعتمد أساساً على مشاهدة الحس ، وبداهة العقل ، ويتميز بالبساطة والوضوح ، ويتجه إلى منفعة الإنسان في دينه ودنياه .

تلك هي خطوط المنهج القرآني بصفة عامة . أما تفصيلاته فإنها تتنوع بتنوع المجالات التي يتعرض لها الإنسان :

ـ ففي مجال الأمور الغيبية ، التي تتجاوز نطاق العقل البشري (بحكم طبيعتها من ناحية ، وقدرته من ناحية أخرى) هناك منهج الاتباع . . ولا ينبغي أن يتصور أحد أن الاتباع في أمور الغيب لا يستند إلى أساس عقلي . فإن الاتباع لا يتم إلا بعد أن يتثبت الإنسان من صدق الرسول الذي يقود خطاه في ذلك الميدان الشاسع . . تماماً كما نلقى بأيدينا إلى « دليل » موثوق به في صحراء أو غابة . . فنحن نتقدم فيها على حذر ، ولكننا واثقون تماماً من أن قائدنا فيها خبير بدروبها ومسالكها ، ولذلك فإننا مطمئنون إلى اجتيازها من خلفه .

ـ وفي مجال العقيدة يوجد منهج الاستقراء الحسيّ (القائم على الملاحظة والمواجهة المباشرة مع الظواهر) والاستدلال العقلي القادر على اقناع الكافة . . لإثبات وجود الله ،

ووحدانيته . . وكذلك اثبات البعث ، والنشور ، والثواب والعقاب . .

ـ وفي مجال التشريع ، هناك منهج الاستنباط القائم على استخراج الأحكام الفرعية لكل ما يتعرض له الإنسان في حياته اليومية من أصول الشريعة الأساسية . .

ـ وفي مجال المعاملات ، هناك منهج الإثبات والإشهاد ، وتسجيل العقود عن طريق الكتابة . .

ـ وفي مجال الأخبار المنقولة ، هناك منهج التثبت والتحري والتمحيص والبحث عن حال الناقلين للأخبار(٧) .

وهكذا تتنوّع المناهج القرآنية بتنوّع المجالات ، ومن الثابت تاريخيا أن المسلمين الأوائل قد استوعبوا جيدا هذه المناهج ، وقاموا بتطبيقها على نحو يدعو للإعجاب في مختلف المجالات .

ويكفي أن نشير هنا إلى منهجهم في توثيق النص القرآني على عهد أبي بكر الصديق ، والجهد العلمي الصادق الذي قام به زيد بن ثابت وأصحابه ، الذين كُلّفوا بجمع صحائف القرآن الكريم عقب وفاة الرسول (ص) مباشرة .

ثم ذلك الجهد الآخر ، الذي قاموا به على عهد عثمان بن عفان في تدوين المصحف الشريف .

وما تم بعد هذا وذاك من وضع « علم القراءات القرآنية » بغرض الحفاظ على سلامة الأداء القرآنى الصحيح ، لكي يستمر اتصال نطقه بنطق الرسول (ص) ، وصحابته الكرام .

لم تكن عملية توثيق النص القرآني عشوائية لدى المسلمين ، وإنما كانت ـ بالمقياس العلمي الحديث ـ بحثاً علمياً متكاملاً ، استخدم القائمون عليه ـ وهم فريق ـ منهجاً علمياً أصيلا ، حدّد لهم القرآن مبادئه الرئيسية ، وبين لهم الرسول (ص) أهم معالمه . فلم

(٧) انظر بصفة خاصة مقدمة الإمام مسلم لكتابه « الصحيح » حيث يؤكد دلالة السنة على « نفي رواية المنكر من الأخبار كنحو دلالة القرآن على نفي خبر الواحد » ١ / ٩ نشر محمد فؤاد عبد الباقي ـ دار احياء الكتب العربية ١٣٧٤ هـ = ١٩٥٥ م .

يكونوا يقبلون نصا بدون شهود ، ولا شهوداً بدون أن تتوافر فيهم العدالة والأمانة والثقة . . وكان بحثاً جماعياً ، قام عليه عدد من علماء الصحابة ، وكانت تتمّ خطواته دون سرية ، وأمام الجميع . . لهذا فقد أنجز بكفاءة ، وحظيت نتيجته ـ حتى يومنا هذا ـ بالقبول .

أما البحث العلمي الكبير الثاني لدى المسلمين ، فقد كان هو جمع السنة النبوية وتوثيقها ، ولا شك في أنهم قد أفادوا كثيراً من منهج العملية الأولى . وهذا واضح في أعمال الإمام البخاري ، والإمام مسلم ، والإمام ابن حنبل ، وغيرهم . . ومن المعروف أن مناهج علماء السنة وجامعى الصحاح هى التي أثمرت « علم مصطلح الحديث » وهو ذلك العلم الإسلامي الخالص الذي يُعتبر ـ بالمقياس الحديث أيضاً ـ وثيقة أساسية هامة في مناهج البحث التاريخي وتوثيق النصوص ، ليس في العالم الإسلامي فقط ، وإنما على مستوى العالم كله .

وبالإضافة إلى ما سبق ، قام فقهاء المسلمين ـ في مجال الأحكام الشرعية والمعاملات ـ بوضع عدد من المذاهب ، التي تميز كل منها بمنهج محدّد : فالمذهب المالكي يعتمد اعتماداً كبيراً على الآثار المرويّة ، في حين ينزع المذهب الحنفي إلى استخدام القياس العقلي . . ثم يأتي المذهب الشافعي ليحاول إحداث التوازن بينهما في مذهب متميز ، وأخيرا يعود المذهب الحنبلي في صورة أكثر حسماً إلى الآثار المرويّة من جديد . . وإلى جانب هذه المذاهب الأربعة الشهيرة ، ظهرت مذاهب أخرى ، حسبنا أن نذكر منها : المذهب الظاهري الذي يقتصر في منهجه على ظاهر النصوص رافضاً بشدة الاعتماد على القياس ، وليس من المستبعد أن يكون تطرّفُه في هذا الاتجاه ردّ فعل للمذهب الباطني الذي يقوم أساساً على منهج التأويل ، وهو الذي يرى أن لكل نص ديني ظاهراً وباطنا . . وأن المعني الباطن إنما هو المقصود الأساسي من الشريعة .

وقد أدّى التأمل العميق في مناهج المذاهب الفقهية المختلفة والمقارنة بينها إلى نشأة علم اسلامي أصيل ، هو « علم أصول الفقه » الذي يُعتبر بمثابة منهج البحث العام في الشريعة . فهو العلم الذي يهتم بالأصول العامة التي تستمد منها الأحكام الفرعية ، وبيان الطرق التي تؤدّي إلى ذلك ، مع تزويد الباحث بمجموعة من القواعد التي تسهل عمله ، وتحفظه ـ في نفس الوقت ـ من الوقوع في الخطأ .

ثم نتيجة لحركة الترجمة الواسعة التي تمت في العصر العباسي الأول تعرف المسلمون على منطق أرسطو ، وهو منهج البحث لدى الإغريق ، وضعه أرسطو ليكون معياراً للعلوم ، وقد

أعجب به المسلمون كثيرا ، باعتباره « العلم الذي تعصم مراعاتُه الذهن عن الخطأ في التفكير » ، وأسرعوا باستخدامه في مجالات كثيرة ، مثل علم الكلام ، والنحو ، والبلاغة ، الخ ... ولكن بعض المسلمين تنبهوا لعيوبه فهاجموه ، وبيّنوا ـ قبل عصر النهضة الأوروبية ـ أنه لا ينفع الذكي ولا ينتفع به البليد[٨] .. وهذا معناه ببساطه : أنه لا يساعد على تقدم المعرفة الإنسانية ، بل على العكس يعمل على تجميدها .

لكن تأثير منطق أرسطو ـ على الرغم من بعض التحذيرات ـ كان بالغاً في العالم الإسلامي ، وخاصة ابتداء من القرن الرابع الهجري ، ولا شك في أنه أفاد كثيراً في دفع عمليات التصنيف ، والتقسيم ، والتفريع ، والتعريف التي نجدها واضحة في مختلف العلوم الإسلامية ، لكن عيوبه تمثلت في إغلاق منافذ التفكير الإبداعي المستمر في تلك العلوم . فبسبب منطق أرسطو ، وقفت البلاغة العربية (وهي المقياس الحسّاس للأدب) هيكلا عظمياً بدون روح ، واكتفى الدارسون فيها بشبكة هائلة من التعريفات والتقسيمات (التي استخدمت أحياناً أمثلة مصنوعة) لكي تستجيب تماماً للمنهج الأرسطي ، الذي يهمه « شكل » القاعدة أكثر من اهتمامه بالأمثلة الواقعية لها .

ومن المعروف أن تأثير منطق أرسطو الواضح في « علم الكلام » هو الذي أبعد هذا العلم عن هدفه الحقيقي ، وجره إلى مناقشات جدلية طويلة حول أمور تجريدية بحتة[٩] . بل إن علماً آخر مثل « أصول الفقه » لم ينج أيضا من هذا التأثير ، وخاصة في المؤلفات المتأخرة منه ، حيث وجد أصحابها من المفيد أن يضعوا في مقدمتها جزءاً من منطق أرسطو[١٠] .

ومع ذلك فإن المسلمين في مجال العلوم التجريبية ، كالفلك والطب والكيمياء ، لم يخضعوا دائماً لمنطق أرسطو ، فقد ثبت أنهم استخدموا منهج الملاحظة والتجربة ، وهو المنهج

---

(٨) هذه العبارة مقتبسة من مقدمة كتاب « الرد على المنطقيين » لابن تيمية . ط . دار المعرفة ، بيروت . بدون تاريخ .

(٩) انظر كتابنا « مدخل لدراسة الفلسفة الإسلامية » ـ الفصل الرابع بعنوان « المشكلات الحقيقية والمشكلات الزائفة في الفلسفة الإسلامية » ص ٩٦ ـ ١٠٠ ـ ط القاهرة ١٩٨٥ .

(١٠) « المنهج الأرسطي والعلوم الكلامية والفقهية في الإسلام ، للأستاذ الدكتور ابراهيم مدكور ـ وهو مقال قمنا بترجمته من كتابه بالفرنسية عن منطق أرسطو في العالم العربي ، مجلة الثقافة ١٩٧٩ .

الذي أدى فيما بعد إلى الانقلاب الحاسم في تاريخ أوربا الحديث[11] ، ويكفي أن نقرأ مقدمة كتاب « المناظر » لابن الهيثم لنقف على وصفٍ ، دقيق للغاية ، للمنهج التجريبي لدى المسلمين وأهم خطواته .

لكن سائلا قد يعترض : ولماذا لم يتقدم المسلمون ، ماداموا قد توصلوا إلى المنهج التجريبي بأنفسهم ، كما تقدمت أوربا ، عندما توصلت إلى هذا المنهج فيما بعد ؟

ونجيب بأن هناك عوامل كثيرة هي التي عاقت هذا التقدم ، بعضها سياسي ، وبعضها اقتصادي ، وبعضها اجتماعي . . وكذلك فإن بعضها داخلي وبعضها خارجي . . ومجموع هذه العوامل هو الذي أدّى إلى ضمور الحضارة الاسلامية . . ولا شك في أن تحليل هذه العوامل ـ بصورة موضوعية خالصة ـ ينتظر عملاً كبيراً من الباحثين المسلمين في العصر الحديث ، لأن تقدم أمتهم في الحاضر والمستقبل لن يتم بدون تحديد أسباب التدهور السابقة .

منهـج ابن حـــزم في نقـــد التـــوراة :

ويعتبر هذا المنهج نموذجاً واضحاً على تقدم المسلمين في مجال نقد النصوص القديمة ، ومحاولة التثبّت منها عن طريق استخدام مجموعة من الخطوات العلمية المنظمة ، التي تتعاون كلها من أجل الوصول في النهاية إلى نتيجة محددّة .

ومن المعروف في مناهج البحث الحديثة أن نقد النصوص القديمة أو الوثائق يدخل في إطار المنهج التاريخي ، الذي يقوم على دعامتين رئيسيتين :

أ ـ النقد الخارجي للوثائق .
ب ـ النقد الداخلي للوثائق .

والنقد الخارجي للوثائق يتضمن نقد مصدر الوثيقة ، وتاريخ انتقالها عبر العصور ، وطريقة وصولها إلينا ، وحالتها التي وصلت بها . . الخ ، أما النقد الداخلي فهو الذي يتجه أساساً إلى تحليل مضمون الوثيقة تحليلاً يبدأ من الخطوط واللغة ، وينتهي بقياس ما تحتوى عليه الوثيقة من معلومات تبعاً لعدة مقاييس ، بعضها تاريخي ، وبعضها عقلي ، وبعضها

---

(١١) نحيل هنا على كتاب د . النشار : مناهج البحث لدى مفكري الإسلام . ط ثانية ـ الاسكندرية ١٩٦٥ .

مقارن . .[١٢]

وقبل أن نتتبع خطوات هذا المنهج عند ابن حزم ، لابد أن نشير إلى أنه قد أعدّ نفسه جيداً لتطبيقه على نص التوراة الموجودة في أيدي يهود الأندلس على عصره ، وهو يطلق عليها « الكتاب الذي تسميه اليهود التوراة »[١٣] . ويمكن التعرف على ذلك فيما يلي :

١ ـ جمع ما أمكن من نسخ التوراة التي كانت مترجمة إلى العربية على عهده[١٤] ، وكذلك كتب الأنبياء الأخرى ، والشروح ، والتعليقات عليها[١٥] .

٢ ـ الاطلاع الواسع والمتعمق في تاريخ اليهود السياسي والديني[١٦] ، مع الإلمام الكافي بجغرافية بلادهم[١٧] .

٣ ـ السعي إلى كثير من علماء اليهود للاستفسار عن معنى غامض ، أو موهم[١٨] ، والدخول مع بعضهم أحياناً في مناقشات شفوية[١٩] .

وقد حدد منذ البداية غرضاً ذا شقين ، يتصل أحدهما بالآخر اتصالاً وثيقا :

الأول : بيان تحريف التوراة التي بأيدي اليهود ، وإظهار ما فيها من كذب وتناقض[٢٠] .

الثاني : إثبات أن الإسلام هو الدين الحقيقي الذي ينبغي التمسك به[٢١].

أما المنهج الذي اتبعه ابن حزم فقد لا يجد الباحث اختلافاً كبيراً بينه وبين منهج النقد

---

(١٢) انظر : د . محمود قاسم : المنطق الحديث ومناهج البحث ، د . عبد الرحمن بدوي : مناهج البحث العلمي ـ وفي كل منهما فصل مخصص لمنهج البحث في التاريخ .

(١٣) الفصل في الملل والأهواء والنحل ١/١١٦ ـ والطبعة التي اعتمدنا عليها في هذا البحث مصورة في بيروت ـ مكتبة خياط ـ عن نسخة القاهرة ، في خمسة مجلدات وبهامشها كتاب الملل والنحل للشهرستاني ـ وسنقتصر في الإشارة إليها بـ (الفِصَل) اختصارا .

(١٤) الفصل ١/١٢١ .

(١٥) السابق ١/٢٠٤ وكذلك ٢٠٧ .

(١٦) السابق ١/١٩٣ ، ١٩٧ ، ١٩٨ ، ٢٠٩ .

(١٧) السابق ١/١٠٣ ، ١٠٤ .

(١٨) السابق ١/١٤١ ، ١٤٢ .

(١٩) السابق ١/١٥٢

(٢٠) السابق ١/١١٦

(٢١) السابق ١/٢٢٤

التاريخي الحديث . ولا يعني هذا أن ابن حزم كان عليه أن يستخدم نفس المصطلحات الحديثة ، ولكنه في الواقع كان على وعي كامل بخطوات المنهج ، وطريقة تطبيقها على المادة التي كانت بين يديه .

ويلاحظ أن المحاولة التي نقوم بها هنا ليست إلا استخلاصاً لخطوات هذا المنهج من خلال تطبيقاتها عند ابن جزم ، ولذلك فإننا لن نورد من نصوصه إلا ما يتعلق مباشرة بإحدى قواعد منهجه في النقد التاريخي . وسنقسم خطوات هذا المنهج إلى قسمين رئيسيين أحدهما : للنقد الخارجي ، والثاني : للنقد الداخلي .

أولا : النقــد الخارجــي لنــص التـــوراة :

● اطلع ابن حزم باعترافه على نسختيْن مختلفتيْن للتوراة[٢٢] ، وقد سجل لنا في هذا الصدد وصفاً تفصيليا لإحدى هاتين النسختين ، قلما نعثر عليه في كتابات أحد من مفكري الإسلام . يقول :

« وإنما هي (التوراة) مقدار مائة ورقة وعشرة أوراق في كل صفحة منها ثلاثة وعشرون سطراً إلى نحو ذلك بخط هو إلى الانفساح أقرب ، يكون في السطر بضع عشرة كلمة »[٢٣] .

● لكن ماذا كانت حال التوراة قبل أن تدوّن ؟ وهنا كان على ابن حزم لكى يجيب على هذا السؤال ، أن يتتبّع التاريخ السياسي والديني لليهود ، حتى يبرز الأدوار المختلفة التي مرّت بها التوراة ، وإلى أى مدى انعكست حياة اليهود عليها في حالتي إيمانهم وارتدادهم عن الإيمان ؟ ولدى مَنْ كان يُحتفظ بها ؟ وأحوال الحَفَظة ؟ والمكان الذي كانت تُحَفظ فيه ؟ إلى آخر تلك

---

(٢٢) السابق ١/١٢١ ، ومن المعروف أن توراة اليهود قد ترجمت بصورة كاملة مرتين قبل عصر ابن حزم : الأولى على يد سعديا الفيومي (ت ٣٣١ هـ) والثانية على يد اسحاق فالسكيز عام ٣٣٥ هـ في قرطبة بالأندلس ، ومن المحتمل جداً أن تكون هذه الترجمة الأخيرة هى التي اطلع عليها ابن حزم . انظر آخر بحث بالعربية ظهر عن « الكتاب المقدس وأسفاره » للأستاذ بسام الجابي ـ مجلة البصائر ـ العدد ١١ ـ باريس ١٩٨٧ م .

(٢٣) الفصل ١/١٨٧

الأسئلة الهامة في مجال التحليل الخارجي للوثائق[٢٤] .

● يقول ابن حزم : « ونحن نصف ـ إن شاء الله تعالى ـ حال كوْن التوارة عند بني اسرائيل من أول دولتهم ، إثر موت موسى ، إلى انقراض دولتهم ، إلى رجوعهم إلى بيت المقدس ، إلى أن كتبها لهم عزرا الورّاق ، بإجماع من كتبهم ، واتفاق من علمائهم ، دون خلاف يوجد من أحد منهم في ذلك . وما اختلفوا فيه من ذلك نبّهنا عليه »[٢٥] .

● ومنذ وفاة موسى ، عليه السلام ، إلى ولاية أول ملك لهم ، وقع لبني اسرائيل سبع رِدّات ، فارقوا فيها الإيمان ، وأعلنوا عبادة الأصنام ، والجدول التالي يبين عدد سنوات تلك الرِدّات :

الردّة الأولــى	٨ سنوات
الردّة الثانية	١٨ ســـنة
الردّة الثالثة	٢٠ ســـنة
الردّة الرابعة	٧ سنوات
الردّة الخامسة	٣ سنوات
الردّة السادسة	١٨ ســـنة
الردّة السابعة	٤٠ ســـنة

ثم في أثناء فترة الأسباط العشرة من بني اسرائيل ، تراوح أمرهم بين الإيمان والكفر ، وإن كان قد جرى معظم ملوكهم العشرين على اعلان الكفر[٢٦] ، إلى أن أسَرَ سليمانُ الأعسر ، ملك الموصل ، آخر ملوكهم ، وسَبَى بني اسرائيل ، وحملهم إلى بلاده ، وأسكن في موضعهم قوماً من أهله . وهؤلاء هم أسلاف السامرية الذين اختصوا أنفسهم بتوراة مستقلة[٢٧] ، وصاروا لا يعترفون بالتوراة التي في أيدي باقي اليهود .

(٢٤) انظر كلا من د . قاسم : المنطق الحديث ومناهج البحث ، د . بدوي : مناهج البحث العلمي .
(٢٥) الفصل ١/ ١٨٧
(٢٦) السابق ١/ ١٩٣ ـ ١٩٥ .
(٢٧) السابق ١/ ١١٧

والواقع ان ابن حزم هنا يقدّم مزيداً من التفصيلات الدقيقة بغية الوصول إلى أن التوراة ، وقد مضى عليها كل هذا التاريخ المضطرب ، الملىء بسنوات الكفر والاضطهاد الديني للأنبياء ، قد تعرضت « للتبديل ، والتحريف ، والتغيير ، والزيادة ، والنقصان »[٢٨] ، بل إنه يذكر أن اليهود « مقرّون بأن يهوا حاز بن يوشيا ، الملك الداوودي ، المالك لجميع بني اسرائيل بعد انقطاع ملوك سائر الأسباط : بَشَر (أى كَشَطَ) من التوراة أسماء الله تعالى ، وألحق فيها أسماء الأوثان ! وهم مُقرّون أيضا أن أخاه ، الوالي بعدُ ، وهو الياقيم بن يوشيا أحرق التوارة بالجملة ، وقطع أثرها »[٢٩] .

وأخيراً ، وقعت غارة بختنصّر ، وتمّ خراب بيت المقدس ، وهو المكان الذي كانت تصان فيه التوراة ، « وكانت كتابة عزرا ، الورّاق الهاروني ، للتوراة بعد أزيد من سبعين سنة ، من خراب بيت المقدس . . أملاها عليهم من حفظه ، وهم مَقرّون أنه وجدها عندهم ، وفيها خلل كثير ، فأصلحه . . ومن ذلك الوقت ، انتشرت التوراة ، ونسخت ، وظهرت ظهوراً ضعيفا أيضا ، ولم تزل تتداولها الأيدي مع ذلك . . ثم تولى أمرهم قوم من بني هارون بعد مئين من السنين . . فحينئذ انتشرت نسخ التوراة التي بأيديهم اليوم »[٣٠] .

وهكذا ، عن طريق استعراض التاريخ الديني والسياسي لليهود ، يصل ابن حزم إلى أن نصّ التوراة الأصلي ، الذي أنزله الله تعالى على موسى عليه السلام ، قد تعرّض ، من الناحيتين الزمانية والمكانية ، لظروف تجعلنا لا نثق به . وفيما يلي عرض أكثر تحديداً لأهم القواعد التي اعتمد عليها ابن حزم في النقد الخارجي لنص التوراة :

١ ـ على مدى تاريخ اليهود ، اختلفت عليهم أحداث جسام ، وتولّى أمرهم ملوك بعضهم مؤمن ، وأكثرهم كافر ، أعلن الكفر ، وعبادة الأوثان ، وقتل الأنبياء وفي مثل هذا الجو ، لم يكن يمكن لنبيٍّ أن يدعو الناس إلى التمسك بمبادىء التوراة الصحيحة[٣١] ،

---

(٢٨) السابق ١/١٨٤ .
(٢٩) الرد على ابن النغريلة ص ٧٧
(٣٠) الفصل ١/١٩٧ .
(٣١) السابق ١/١٩٣

وحتى هذه التوراة قد تعرضت أحياناً للتحريف المتعمد ، وفي أحيان أخرى لمحاولة اعدام كامل .

٢ ـ أحيانا كانت فترات الكفر تتصل حتى تبلغ مائة وستين عاما متتالية : « فأىّ كتاب أو أىّ دين يبقى مع هذا ؟! »[٣٢]

٣ ـ بل ما هو أكثر من ذلك : « أىّ كتاب يبقى مع تمادي الكفر ، ورفض الإيمان هذه المدد الطوال ، في بلد صغير ، مقدار ثلاثة أيام في مثلها ، ليس على دينهم واتباع كتابهم أحد على ظهر الأرض غيرهم »[٣٣] .

٤ ـ ومن ناحية أخرى ، فإن الكهنة ، حَفَظة التوراة « قد كان فيهم ما كان في غيرهم من الكفر والفسق وعبادة الأوثان : ومَنْ هذه صفته فلا يؤمن علي تغيير ما ينفرد به »[٣٤] .

٥ ـ وأخيراً فإن من القواعد الهامة ، التي يسجلها ابن حزم ، أن « كل كتاب وشريعة كانا مقصورين على رجال من أهلها ، وكانا محظورين على من سواهم ، فالتبديل والتحريف مضمون فيهما . . وكذلك التوراة إنما كانت طوال مدة بني اسرائيل عند الكوهن الأكبر الهاروني وحده ! »[٣٥] .

تــــوراة الســـــامـــريـــة :

وقبل أن ننتقل إلى النقد الداخلي للتوراة عند ابن حزم ، نتوقف قليلاً عند توراة السامرية ، وهى التي ينكرها معظم طوائف اليهود الأخرى ، نظراً لأن معظم النقد الموجه إليها يرجع إلى الناحية الخارجية :

يذكر ابن حزم أن اليهود ينقسمون إلى خمس فرق[٣٦] :

---

(٣٢) السابق ١/١٩٦ .

(٣٣) السابق ١/١٩٠

(٣٤) السابق ١/١٩٩ .

(٣٥) السابق ١/١١٣ وكذلك : الرد على إبن النغريلة ص ٧٧ .

(٣٦) الفصل ١/٩٨ ، ٩٩

١ ـ السامرية
٢ ـ الصدوقية
٣ ـ العنانية
٤ ـ الربّانية
٥ ـ العيسوية

ولما كانت فرقة السامرية تختلف عن الفرق الأربع الأخرى اختلافا كبيرا في معظم الأسس تقريبا ، ومن بينها أنها تنكر التوراة التي تؤمن بها سائر الفرق الأخرى ، وتختص نفسها بتوراة مستقلة فإن هذه الفرق تتخذ منها نفس الموقف : كلها تنكر توراة السامرية ، وتقرر تحريفها وبطلانها(٣٧) .

وفي البداية ، يجد ابن حزم نفسه أمام تناقض الخصوم فيما بينهم فلا يسعه إلا أن يسرع باتخاذ هذا التناقض دليلاً مبدئياً على فساد توراة السامرية ، وهو دليل من أقوال خصومهم وخصومه في نفس الوقت . ومع ذلك ، فقد حاول أن يحصل على نسخة من توراة السامرية ، لكنه لم يستطع ، وهو يبيّن السبب في ذلك حين يقول : « ولم يقع لنا توراة السامرية ، لأنهم لا يستحلّون الخروج عن فلسطين والأردن أصلا »(٣٨) . ثم يضيف : « إلا أننا قد أتينا ببرهان ضروري على أن التوراة التي بأيدي السامرية أيضا محرّفة مبدّلة »(٣٩) .

ويستخرج ابن حزم هذا البرهان من التاريخ اليهودي نفسه ، وهو يتمثل في أن السامرية يختلفون ، منذ البدء ، عن باقي اليهود في الجنس والمكان والعقائد : فهم من بقايا نسل أهل الموصل الذين نقلهم الملك سليمان الأعسر بعد سَبْى بني اسرائيل من بلاد الشام . وقد سكنوا هذه البلاد ، وأصبحوا لا يستحلون لأنفسهم الخروج منها ، ونتج عن هذا وذاك تميّز عقائدهم بطابع لا يتفق وعقائد اليهود جميعا « فأمْرُ توراة أولئك (السامرية) أضعف من توراة هؤلاء (سائر اليهود) ، لأنهم لا يرجعون فيها إلى نبيّ أصلاً ، ولا كانوا هنالك أيام

---

(٣٧) السابق ١/١/١١٧ .
(٣٨) السابق ، نفس الجزء والصفحة
(٣٩) السابق ، نفس الجزء والصفحة .

دولة بني اسرائيل ، وإنما عملها لهم رؤساؤهم »[٤٠] .

وهكذا ينتهي ابن حزم بسرعة من توراة السامرية ، ومع ذلك يمكننا أن نتلمس خطوات منهجه هنا فيما يلي :

١ ـ محاولة الحصول على نسخة من توراة السامرية ، وبيان السبب في عدم التمكن من ذلك (= جمع الوثائق) .

٢ ـ الاعتماد على تناقض الخصوم فيما بينهم ، وصولاً للمطلوب (دليل جدلي) .

٣ ـ الرجوع إلى تاريخ اليهود نفسه ، لبيان الصلة المقطوعة بين توراة السامرية وأنبياء بني اسرائيل ، وكذلك غياب السامرية من منطقة الشام في أثناء دولة بني اسرائيل ، بالإضافة إلى أن رؤساءهم هم الذين وضعوها لهم (أحد وجوه النقد الخارجي للوثائق) .

ثانيا : النقد الداخلي لنص التوراة :

قلنا فيما سبق إن ابن حزم قد وصف النسخة التي اعتمد عليها من التوراة وصفاً قلّما نجد له مثيلاً عند أحد من مفكري الإسلام ، ونضيف هنا : أنه تتبّع ، على الترتيب ، فصولها السبعة والخمسين[٤١] ، كل فصل على حدة ، مبينا ما فيه من أدلة تكشف عن فساد نسبته إلى موسى ، عليه السلام ، وتُثْبِتُ أنه من وضع مُدلِّسٍ جاهل[٤٢] ، أو ملحد متستر باليهودية[٤٣] .

والحقيقة أنه كان ينقص ابن حزم ، لكي يلحق بالمنهج النقدي الحديث تماماً ، أن يتقدم خطوة أخرى ، فيقوم بتصنيف الأدلة التي توصّل إليها ، على أساس موضوعي ، حتى يسلم عمله من بعض التكرار الذي وقع فيه ، نتيجة لغياب هذا التصنيف (مثلا : النصوص التي تدل على تشبيه الله تعالى ، يتكرر ورودها في الجزء الأول من كتاب الفصل في الملل والأهواء والنحل ، صفحات ١١٧ ، ١١٨ ، ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٤ ، ١٦٥) .

ومع هذا ، فيمكن القول بأن هذا التكرار ربما كان مقصوداً من ابن حزم نفسه ، لكي

---

(٤٠) السابق ١/١٩٥ .
(٤١) السابق ١/١٨٦ .
(٤٢) السابق ١/١٥٠ .
(٤٣) السابق ١/١٢٨ .

يؤكد للقارىء ، على فترات مختلفة ، مدى ما وقع فيه واضعو التوراة المحرّفة من خلط واضطراب ، وعدم إحكام للمهمة التي حاولوا القيام بها .

ومن ناحية أخرى ، فكأنما أراد ابن حزم أن يقول للقارىء : إنني سوف أبدأ من البداية ، وأتدرج مع فصول التوراة على الترتيب الذي جاءت به : حتى لا يفوتني شيء . ولعل ما يؤكد هذا أننا نجده يبدأ بالاقتباس من الصفحة الأولى للتوراة(٤٤) ، وينتهى بالفصل الأخير منها(٤٥) .

ويلاحظ أن ابن حزم يورد أربعة وخمسين نصا من فصول التوراة التي ذكر أنها سبعة وخمسين فصلا . ولا يعنى هذا أنه قد تجاوز ثلاثة فصول ، لكنه في الواقع كان يستخرج أحياناً من النص الواحد ثلاثة أخطاء(٤٦) ، وفي أحيان أخرى سبع كِذْبات(٤٧) .

لقد حرص ابن حزم على أن يكون منصفاً في نقده للتوراة ، ولذلك استبعد من نصوصها ما كان محتملاً أو غامضاً ، حتى لا يدع مجالاً لمعترض . وقد اقتصر في جمع مادته على النصوص الصريحة في الدلالة المباشرة على ما يريد . يقول :

« وليعلم كل مَنْ قرأ كتابنا هذا (الفِصَل) أننا لم نخرج من الكتب المذكورة (يقصد كتب اليهود) شيئاً يمكن أن يخرج على وجه ما ، وإنْ دقّ وبعد . فالاعتراض بمثل هذا لا معنى له ، وكذلك أيضا لم نخرج منه كلاما لا يفهم معناه ، وإن كان ذلك موجوداً فيها ، لأن للقائل أن يقول : قد أصاب الله به ما أراد ! وإنما أخرجنا ما لا حيلة فيه ولا وجه أصلا ، إلا الدعاوى الكاذبة التي لا دليل عليها أصلاً ، لا محتملا ولا خفياً »(٤٨) .

ويمكننا أن نقرر منذ الآن ان ابن حزم قد التزم عند التطبيق بهذا العهد الذي قطعه على نفسه . فحينما كان يكتشف الخلط أو الكذب في أحد النصوص المشار إليها هنا ، كان يمسك عند مناقشته بناء على احتماله « للتأويل البعيد »(٤٩) ، أو لأنه « يمكن أن يُخرّج على وجه ما »(٥٠) ، بل وجدناه في أكثر من موضع يسعى بنفسه إلى علماء اليهود مستفسراً عن معنى كلمة(٥١) ، أو مستوضحاً حقيقة مسألة(٥٢) .

---

(٤٤) السابق ١/١١٧ .
(٤٥) السابق ١/١٨٦ .
(٤٦) السابق ١/١٣٣ ، ١٣٤ .
(٤٧) السابق ١/١٨٦ .
(٤٨) السابق ١/١١٧ .
(٤٩) السابق ١/١٤٤ .
(٥٠) السابق ١/٥٥ .
(٥١) السابق ١/١٣٥ ، ١٤١ ، ١٥٢ .
(٥٢) السابق ١/١٩٥

إننا نلح هنا على روح الإنصاف لدى ابن حزم ، لأن لها أهمية خاصة في موضوعية النمهج الذي اعتمد عليه ، ولأنها ، في الوقت نفسه ، تُعدّ ردًّا حاسماً على ما تردّد من أن ابن حزم كان يبدأ في جدال خصومه ، من مسلمات يعتقد تماماً في صحتها[٥٣] ، أو أنه يصدر عن عداوة متأصّلةٍ فيه[٥٤] . وسوف نرى أثناء التحليل التالي لنقده : هل صحيح أن ابن حزم كان يكره ثم يهاجم ، أم أنه كان يكره ، لأنه يكتشف زيف من يهاجمه !

وسنقوم الآن بتصنيف عناصر النقد التفصيلي الذي وجهه ابن حزم إلى نص التوراة الموجودة في أيدي اليهود على عصره ، في أربعة قوائم ، حتى يسهل تناولها بقدر من التحليل :

القائمة الأولى : فيما يتعلق بالذات الإلهية
القائمة الثانية : فيما يتعلق بالأنبياء
القائمة الثالثة : تناقض النصوص
القائمة الرابعة : أخطاء علمية

القائمة الأولى : فيما يتعلق بالذات الإلهية :

لاحظ ابن حزم أن التوراة تمتلىء بالتعبيرات التي يمسّ منطوقها ومفهومها معاً قداسة الذات الإلهية ، وما ينبغي لها من سمو وتنزيه ، فهي تنسب إلى الله (تعالى) التشبيه والبداء ، وتصفه بأوصاف بشرية ، وتصيف إليه الأبناء ، وتذكر نبوءات له لم تتحقق .

● تشبه التوراة أحياناً الإنسان (المخلوق) بالله (الخالق) . ومن تعبيراتها في ذلك الصدد : « قال الله : أصنع بناء آدم كصورتنا ، كشبهنا »[٥٥] وكذلك « قال الله : هذا آدم قد صار كواحدٍ منا في معرفة الخير والشر »[٥٦] ، وفي أحيان أخرى ، تشبه الله بالمخلوقات : « اعلموا أن السيد إلهكم الذي هو نار أكول . . . »[٥٧] .

---

(٥٣) انظر : د . الطاهر أحمد مكي : دراسات عن ابن حزم ص ١٤٣ وما بعدها . مكتبة وهبة . القاهرة ١٩٧٧ .
(٥٤) السابق ١٧٦ .
(٥٥) الفصل ١/ ١١٧ .
(٥٦) السابق ١/ ١٢٠
(٥٧) السابق ١/ ٦٠ ، والرد على ابن النغريلة ص ٧٦ .

● أما نسبة البداء إليه ، فيظهر من انذار الله لموسى أنه سيهلك بنى اسرائيل ويقدّمه على أمة أخرى عظيمة ، « فلم يزل موسى يرغب إلى الله تعالى في أن يفعل ذلك حتى أجابه ، وأمسك عنهم - وهذا هو البداء بعينه والكذب المنفيّان عن الله تعالي »[٥٨] .

● كما يكثر في التوراة وصف الله تعالى بأوصاف بشرية ، لا تليق به ، ومنها أنه تعالى كان « يكلم موسى مواجهة ، فماً بفم ، كما يكلم المرء صديقه »[٥٩] ، ومنها أيضا : « أن موسى رغب إلى الله تعالى أن يراه ، وأن الله تعالى قال له : سأدخلك في حَجَر ، وأحفظك بيميني ، حتى أجتاز ، ثم أرفع يدى وتبصر ورائى ، لانك لا تقدر أن ترى وجهي »[٦٠] ، ومنها أيضا : « أن الله تعالى خلق الخلق في ستة أيام ، واستراح في اليوم السابع ! » ويعلق ابن حزم قائلا : « وهل تكون الراحة إلا لتعب ونصب ، قد خارت قواه ، وضعفت طبيعته »[٦١] .

وما هو أكثر صراحة من ذلك كله ، أن الله تعالى تبدّى ليعقوب على هيئة إنسان قوى ظلّ يصارعه حتى الصباح ، دون أن ينتصر عليه »[٦٢] ، ويقول ابن حزم : « ولقد ضربت بهذا الفصل وحده المتعرّضين منهم (أى من اليهود) للجدال في كل محفل »[٦٣]

● ومما يتصل بمسألة التشبيه أن التوراة قد نسبت إلى الله تعالى أولاداً ، ومن ذلك قولها : « فلما رأى أولادُ الله بنات آدم ، أنهنّ حسان ، اتخذوا منهن نساء ، وقال (أى كاتب التوراة) بعد ذلك : كان يدخل بنو الله إلى بنات آدم ، ويُولَدُ لهم حراما ، وهم الجبابرة على الدهر »[٦٤] . « وقال في السفر الثاني من توراتهم : إن الله تعالى قال لموسى ، عليه السلام : قلْ لفرعون : السيد يقول : الإسرائيل بكر ولدي ، ويقول لك إئذنْ لولدي ليخدمني »[٦٥] .

● وأخيرا تأتى النبوءات الإلهية التي لم تتحقق .. ومن أمثلتها قول الله تعالى لزوجة

---

(٥٨) الفصل ١/١٠١ ، ١٠٢ ، ١٦٤ وكذلك : الرد على ابن النغريلة ص ٧٣ .
(٥٩) الفصل ١/١٦٤ . (٦٠) السابق ١/١٦٥
(٦١) الرد على ابن النغريلة ص ٥٤ . (٦٢) الفصل ١/١٤١ ، ١٤٢ .
(٦٣) السابق ، نفس الجزء والصفحة وتوجد إشارة لذلك أيضا في ١/١٤٨ .
(٦٤) السابق ١/١٢١ . (٦٥) السابق ١/١٥٣ .

اسحاق : « في بطنك أُمّتان وحزبان ، يفترقان منه ، أحدهما أكبر من الآخر ، والكبير يخدم الصغير » . ولا خلاف بينهم في أن عيسو (الكبير) لم يخدم قط يعقوب (الصغير) ، بل في التوراة - نصّاً - أن يعقوب سجد على الأرض سبع مرات لعيسو إذْ رآه . . وأن بني عيسو لم تزل أيديهم على أقفاء بني اسرائيل من أول دولتهم إلى انقطاعها »[٦٦] .

القـائمـة الثـانيـة : فيمـا يتعـلق بالأنبيـاء :

تمتلىء التوراة بعدد كبير جداً من النصوص التي تصوّر الأنبياء تصويرا لا يتفق وعصمتهم أو مقامهم الديني الجليل ، بل إنها تذهب إلى أبعد من ذلك فتنسب إليهم العديد من الكبائر .

● ويتبدّى ذلك من مراجعات الرسل لله تعالى في مخاطباته إياهم . ومن ذلك : « أن الله تعالى قال لابراهم ؛ أنا الله الذي أخرجتك من أتون الكردانيينَ لأعطيك هذا البلد حورا ، فقال له ابراهيم : يا رب ، بماذا أعرف أنى أرث هذا البلد » ويعقب ابن حزم قائلا : حاشا لله أن يقول ابراهيم (ص) لربه هذا الكلام ! فهو كلام مَنْ لم يثق بخبر الله عز وجل حتى طلب على ذلك برهاناً »[٦٧] .

وهنا يسرع ابن حزم ليؤكد أن مثل هذا الاعتراض على الله ، ليس من قبيل طلب ابراهيم رؤية إحياء الموتى المذكور في القرآن[٦٨] ، بل إن الفرق بين الاثنين هو « فرق كما بين المشرق والمغرب »[٦٩] ومع أنه يفسر كلا من طلب القرآن ، واعتراض التوراة ، فإنه يورد معارضة أخرى لا يتطرق الشك في ظهور شناعتها :

عندما علمت سارة بأنه سيكون لها ابن ، وهى في حال لا تلد أمثالها من النساء ، ضحكت في نفسها : « قال الله تعالى إن سارة ضحكت : وقالت سارة : لم أضحك . فقال الله : بلى قد ضحكت !

فهذه مراجعة الخصوم ، وتعارض الأكفاء ، وحاشا لسارة ، الفاضلة المنبّأة من الله عز وجل بالبشارة ، من أن تكذب الله عز وجل فيما يقول ، وتكذب هي في ذلك ، فتجحد

---

(٦٦) السابق ١٣٦/١ وأيضا صفحات ١٢١ ، ١٢٧ ، ١٢٩ ، ١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٦٣ ، ١٦٤ .
(٦٧) السابق ١٢٩/١ .
(٦٨) سورة البقرة ، الآية ٢٦٠ .
(٦٩) الفصل ١٢٩/١ .

ما فعلت ، فتجمع بين سوْأتين إحداهما كبيرة من الكبائر ، قد نزّه الله عز وجل الصالحين عنها ، فكيف الأنبياء ! والأخرى أدهى وأمرّ ، وهي التي لا يفعلها مؤمن ولو أنه أفسق أهل الأرض ، لأنها كفر »[٧٠] .

أما المساس بعصمة الأنبياء ، كما ورد في التوراة التي بأيدي اليهود ، فيتمثل في عدد من الأخطاء الدينية والتهم الأخلاقية التي تأبى طبيعة النبوة نفسها أن يقع أمثالها من نبي .

● فمن ذلك ما ورد في التوراة ، أكثر من مرة ، خاصاً بسجود الأنبياء للملائكة ، وتعبّدهم لها . وقع ذلك من ابراهيم ، عليه السلام[٧١] ، وكذلك من لوط[٧٢] . يقول ابن حزم : « فإن الأنبياء لا يسجدون لغير الله تعالى ، ولا يتعبّدون لسواه »[٧٣] .

● وما هو أفحش من ذلك يتمثل في ما ذكرته التوراة عن هارون ، الذي جمع من بني اسرائيل ، أثناء فترة غياب موسى ، أقراط الذهب ، « وأفرغها ، وعمل منها عجلاً ، وقال : هذا إلهكم ، يا بني اسرائيل ، الذي أخرجكم من مصر »[٧٤] .

وهنا لا يسع ابن حزم إلا أن يبدى عظيم دهشته ، فيقول : « إن هذا الفصل عفا على ما قبله ، وطم عليه . . نبي مرسل كافر مشرك يعمل لقومه إلهاً من دون الله !! »[٧٥] .

● بل إن شيئاً من عصمة الأنبياء لا يمكن أن يبقى ، حينما تذكر التوراة أن ابنتى لوط مارستا الزنا مع أبيهما بعد أن سقتاه الخمر ، وحملتا منه ، ووضعتا ولدين ! »[٧٦] .

● وإذا قيل إن لوطاً كان سكران ـ وحتى هذا غير مقبول أساساً من الناحية الدينية والعقلية ـ فإن يهوذا قد سعى بنفسه ـ تبعا لما ورد في التوراة ـ إلى زوج ابنه ، وقد ظنها زانية ، ليمارس معها هذا الفعل ، الذي نتج منه توأمان كان من نسلهما داود وسليمان عليهما السلام[٧٧] .

يقول ابن حزم : « وتالله ما رأيت أمة تقر بالنبوة ، وتنسب إلى الأنبياء ما يشبه هؤلاء الكفرة !! »[٧٨] .

---

(٧٠) السابق ١٣٢/١ وكذلك ١٨٠ ـ ١٨٣ .
(٧١) السابق ١٣٠/١
(٧٢) السابق ١٣١/١ .
(٧٣) السابق ١٣٢/١
(٧٤) السابق ١٦١/١ .
(٧٥) السابق ١٦٢/١
(٧٦) السابق ١٣٣/١ ، ١٣٤ .
(٧٧) السابق ١٤٥/١ ، ١٤٦ .
(٧٨) السابق ١٤٧/١ .

● ومع ذلك ، فمن المناسب هنا أيضا أن نسوق قصة إسحاق عندما طلب من ابنه عيسو أن يأتيه بصيد ليباركه ، وأن رفقة ، أم عيسو ويعقوب أسرّت إلى الأخير ، الذي كانت تفضله على أخيه ، أن يسرع للقيام بهذا العمل ، ويخادع إياه ، لينال بركته(٧٩) .

ويعقب ابن حزم على ذلك قائلا : « وفي هذا الفصل فضائح وأكذوبات وأشياء تشبه الخرافات »(٨٠) . ويمكننا نحن أن نلخصها فيما يلي :

- خداع يعقوب (النبي) ، وكذبه على أبيه !
- جواز الحيلة على اسحاق (وهو نبي !)
- سرقة البركة من الأنبياء عن طريق الغش والخداع (وهذا يعكس أخلاق اليهود) .
- كيف تتحقق البركة ليعقوب ، مع أن المقصود بها عيسو ؟!

وهنا ينتهز ابن حزم هذه الفرصة ليقول : « وما أشبّه هذه القضية إلا بحمق الغالية من الرافضة ، القائلين إن الله تعالى بعث جبريل إلى علي ، فأخطأ جبريل وأتى إلى محمد ! »(٨١)

● أما فيما يتعلق بهدم معجزات الأنبياء ، فتأتي عن طريق إمكانية مشاركة السحرة لهم في القدرة على الأعمال الخارقة ، وبذلك تنتفي عن الرسل صفة التفرّد بالمعجزات . وقد اخترنا النص التالي من كتاب ابن حزم في الرد على ابن النغريله اليهودي ، لأنه أخصر بكثير مما ورد عن نفس الموضوع في كتاب : الفِصَل :

« ومن عجائبهم أنهم يقرّون في كتابهم المسمى بالتوراة أن السحرة فعلوا بالرقي المصري مثلما فعل موسى بن عمران (ص) من قلب العصا حيّة ، ومن قلب ماء النيل ، ومن استجلاب الضفادع ، حاشا البعوض ، فلم يقدروا عليه !

قال أبو محمد : لو صح هذا - وأعوذ بالله - لما كان بين موسى ، عليه السلام ، والسحرة فرق ، إلا قوة العلم والتمهر في الصناعة فقط .

ونحن نبرأ إلى الله تعالى من أن يكون آدمي يقدر بصناعته على خرق عادة ، أو قلب عين ، وننكر أن الله تعالى يولي ذلك أحداً غير الأنبياء ، عليهم السلام ، الذين جعل الله

---

(٧٩) السابق ١/١٣٧ .
(٨٠) السابق ، نفس الجزء والصفحة .
(٨١) السابق ١/١٣٨ .

تعالى ظهور المعجزات عليهم شاهدا لصدقهم »[٨٢] .

وأخيرا نصل إلى تسجيل التوراة لكثير من نبوءات الأنبياء التي لم تتحقق ومن الواضح أن هذه إحدى البصمات التي تشوّه مقام النبوة ، بل إنها تهدم بنيانه الذي يقوم أساساً على الصدق .

● تذكر التوراة أن نوحاً حين بلغه فعل ابنه حام ، أبي كنعان ، قال « ملعون أبو كنعان ! عبد العبيد ، يكون لإخوته مستعبداً ، يكون لاخوته » ويلاحظ ابن حزم أن حفيد حام هذا ، الذي تنبأ له نوح بالاستعباد ، كان هو النمروذ ، الذي ملك جميع الأرض ، ونوح لما يزل على قيد الحياة !

ويعقب ابن حزم قائلا : « فحصل من هذا الخبر تكذيب نوح في خبره ، وهو بإقرارهم نبي معظم جداً »[٨٣] .

● كذلك تذكر التوراة « أن يعقوب ، عليه السلام ، قال للاوي وشمعون سأبدّدهما في يعقوب ، وأفرقهما في اسرائيل ! » ويقول ابن حزم : « أما لاوى فكان نسله مبدّداً في بني اسرائيل كما ذكر ، وأما بنو شمعون فلا . بل كانوا مجتمعين في البلد الذي وقع لهم ، كسائر الأسباط ولا فرق » وينتهى ابن حزم إلى أن إنذار النبوة ليس « مما يكذب في قصة ويصدق في أخرى. هذه صفات انذارات الحُسّاب القاعدين على الطرق للنساء ، ولمن لا عقله له »[٨٤] .

القائمة الثالثة : تناقض النصوص :

إذا كان ابن حزم قد صدر في نقده الذي صنفناه في القائمتين السابقتين من منطلق ديني ، أى أنه كان يعرض توراة اليهود على مقياس ديني ، فإنه في هذه القائمة قد أصبح يعتمد على أساس عقلي واضح .. فهو يقرأ النصوص بإمعان ، ويقارن بينها في صبر ، ثم يستخرج النتيجة التي تثبت اضطراب النص الذي يقوم بفحصه .

وقد اكتشف ابن حزم كثيراً من وجوه التناقض في توراة اليهود . ومن أبرز وجوه هذا

---

(٨٢) الرد على ابن النغزيلة ص٨٢ ، والموضوع يستغرق في كتاب الفصل من ١٥٤ ـ ١٥٨ .

(٨٣) الفصل ١/١٢٣ ، ١٢٤ (٨٤) السابق ١/١٥٣ .

التناقض : تناقض النص مع نفسه ، وتناقض النص مع نص آخر في نفس النسخه من التوراة ، وتناقضه مع نص آخر في نسخة أخرى من نسخ التوراة ، وأخيراً تناقض نص توراة اليهود مع نص قرآني ثابت .

● فمن وجوه تناقض النص مع نفسه ، بمعنى أن آخره ينقض أوّله ، ما ورد بشأن فرعون ، الذى ذكرت التوراة إهلاك جميع دوابه في وباء عام ، شمله وأهل مصر جميعا ، ثم بعد قليل تذكر التوراة : أن الله تعالى أنذر فرعون بأنه سوف يهلك أنعامه بالبرد !

ويعقب ابن حزم على ذلك بقوله : « فليت شعري ! أى دابة بقيت لفرعون وأهل مصر ، وقد ذكر أن الوباء أهلك جميعها »[٨٥] .

● وفي موضع آخر تذكر التوراة أن الله تعالى قرر أعمار البشر بمائة وعشرين سنة ، وبعد هذا القول : تورد أسماء كثير من الأنبياء والأشخاص الذين عاش احدهم ٦٠٠ سنة ، ٤٦٥ سنة ، ٤٣٣ سنة ، ٤٦٤ سنة[٨٦] .

كذلك تذكر التوراة عن يعقوب أنه قال لراوبين : أنت أول المواهب ، مفضّل في الشرف ، مفضّل في العز ، ولا تفضل منهملة ماء !

ويقول ابن حزم : هذا كلام يكذب أوله آخره[٨٧] .

● أما بالنسبة إلى النصوص التي تتعارض مع بعضها البعض ، فهي كثيرة جداً في توراة اليهود ، ومن أمثلتها :

ذكر كاتب التوراة أن هابيل بن آدم كان راعي غنم . وقبل ذلك بنحو ورقتين ، يقول : إن لامك ، الحفيد الخامس لقابيل ، هو أول من سكن الأخبية وملك الماشية . ويقول ابن حزم : وهاتان قضيتان تكذب إحداهما الأخرى ، ولا بد[٨٨] .

كذلك تصف التوراة المنّ النازل على بنى اسرائيل من السماء بأنه كان أبيض ، شبيها

---

(٨٥) السابق ١٥٧/١ ، ١٥٨

(٨٦) السابق ١٢٢/١ .

(٨٧) السابق ١٥٢/١

(٨٨) السابق ١٢١/١ .

بزريعة الكزبر ، ومذاقة كالسميد المعل . وفي السفر الرابع : كان المن شبيها بزريعة الكزبر ، ولونه إلى الصفرة ، وكان طعمه كطعم الخبز المعجون بالزيت ، ويقول ابن حزم : وهـذا تناقض في الصفة واللون والطعم ، وإحدى الصفتين تكذب الأخرى بلا شك »[٨٩] .

وأيضا ما ذكرته التوراة من « أن رؤية الله قد وقعت لبعض بني اسرائيل . وفي السفر الخامس : كلمكم الله من وسط اللهيب ، فسمعتم صوته ، ولم تروا له شخصا » .

يقول ابن حزم : « وهاتان قضيتان تكذب كل واحدة منهما الأخرى ، ولابد »[٩٠] .

● ويسجل ابن حزم وجهاً آخر من التناقض ، وذلك عن طريق المقارنة بين نسختين مختلفتين للتوراة .

فقد ورد في النسخة التي اعتمدها في دراسته أن الله تعالى أسكن في شرقي جنة عدن الكروبيم ، ولهيب سيف متقلّب بحراسة شجرة الحياة .

وفي نسخة أخرى : ووكل الله تعالى بالجنان المشتهر اسرافيل ، ونصب ين يديه رمحاً ناريا ، ليحفظ طريق شجرة الحياة .

وهنا يعقب ابن حزم قائلا : إن لم يكن أحدهما خطأ من المترجم ، وإلا فلا أدرى كيف هذا ؟![٩١] .

● وأخيرا يعتمد ابن حزم في إظهار تناقض التوراة على ما ورد في القرآن الكريم ـ وهو المنقول عن طريق التواتر ـ خاصاً بشأن قصة ، يظهر تلفيقها واضطرابها في التوراة ، ويتضح اتساقها ومعقوليتها في القرآن الكريم .

فمن ذلك : أن الله تعالى قد تجلى لابراهيم ، عند بلوطات ممرأ ، وهو جالس عند باب الخباء ، عند حمى النهار ، ورفع عينيه ، ونظر ، فإذا بثلاثة نفر وقوف أمامه ، فنظر ، وركض لاستقبالهم عند باب الخباء ، وسجد على الأرض ، وقال يا سيدي . . . الخ .

ويتتبع ابن حزم هذه القصة في التوراة ليستخرج منها سبع نقاط ضعيفة ، كلها تكشف

---

(٨٩) السابق ١٦٠/١

(٩٠) السابق ١٦١/١ .

(٩١) السابق ١٢١/١

عن التناقض ، إما في داخل القصة ذاتها ، وإما مع المبادىء الثابتة لدى اليهود . . ثم ينتهى من ذلك قائلا : أين هذا الكذب ، البارد ، الفاضح ، الذي يشبه عقول اليهود المصدقين به ، من الحق المنير ، الواضح عليه ضياء اليقين ، من قول الله ، عزل وجل ، في هذه القصة نفسها (ولقد جاءت رسلنا ابراهيم بالبشرى قالوا سلاما قال سلام ـ الآية)(٩٢) .

القـائمـة الرابعـة : أخطـــاء علمـــية :

تشتمل هذه القائمة على مجموعة من الأخطاء العلمية التي رصدها ابن حزم في توراة اليهود ، وتتعلق هذه الأخطاء بالحساب ، والتاريخ ، والجغرافيا ، وما نسميه الآن بالجغرافيا الاقتصادية ، وأخيراً طبائع العمران ، وبداثه العقل . ومع أننا قد وضعناها جميعا تحت عنوان واحد ، قد يتسم بالعمومية ، إلا أننا قمنا بتصنيف نقدي لعناصر كل جانب منها .

ومما هو جدير بالملاحظة أن ابن حزم قد قدّم بهذا العمل نموذجاً جيداً لدارس الوثائق القديمة ، الذي ينبغي أن يحتشد لموضوعه ، معتمداً على كل « العلوم المساعدة » في مجال بحثه . ومن الواضح أنها ـ هنا ـ تتمثل في إجادة الحساب ، والإلمام الدقيق بالتاريخ والجغرافيا ، وذلك بالاضافة إلى حسن استخدام قاعدة « الوضوح العقلي » أو « بداثة العقل » ، كما يطيب لابن حزم أن يسميها . وأخيراً التطبيق المبتكر لمبدأ « طبائع العمران » على حوادث الماضي ، وهو المبدأ الذي أجاد ابن خلدون ـ فيما بعد ـ عرض فلسفته في مقدمته الشهيرة .

أ ـ أخـــطاء في الحســـاب :

سجّل ابن حزم كثيراً من الأخطاء التي تضمنتها التوراة في الحساب ، وهو القائل إن « الحساب علم ضروري ، لا يتناقض »(٩٣) . لذلك فقد رأى أن هذه الأخطاء تعتبر من الأدلة القوية على أن تلك التوراة الموجودة بأيدي اليهود ليست هي التوراة التي أنزلها الله تعالى على موسى عليه السلام . « لأنه تعالى عن أن يخطيء في الحساب ، أو أن يخطيء فيه موسى عليه السلام ، فصحّ أنها من توليد جاهل غث ، أو من عابث سخر بهم ، وكشف

---

(٩٢) سورة هود ، الآية ٦٩ . والنص في كتاب الفصل ١/١٣٠ ، ١٣١ .
(٩٣) الفصل ١/١٥٠ .

سوءاتهم ! »[٩٤] والقاعدة هنا أن الله تعالى « لا يمكن أن يكذب في دقيقة ، ولا أن يكذب رسوله ، صلى الله عليه وسلم ، عامداً ولا مخطئا في دقيقة ، فيقره الله تعالى على ذلك »[٩٥] .

فكيف إذن يوجد هذا الخطأ في ما يقرب من عام ، وذلك عندما تتعرض التوراة مثلا لعمر جد نوح ، عليه السلام :

فهي تذكر أن عمر متوشالح = ٩٦٩ سنة .
وأنه أنجب ابنه لامك ، وعمره = ١٨٧ سنة
وعندما بلغ لامك = ١٨٢ سنة ، ولد له نوح .
أى أن عمر متوشالح عندما ولد حفيده نوح كان = ٣٦٩ سنة .
وبالتالي فإن عمر نوح كان = ٦٠٠ سنة ، عند موت جده متوشالح .
لكن الحديث عن الطوفان يبين أن متوشالح لم يستوف الـ ٦٠٠ سنة ![٩٦] .

كما أن هناك خطأ آخر يبلغ عامين في عمر سام بن نوح : « قال في توراتهم إن نوحاً لما بلغ ٥٠٠ سنة ولد له يافث وسام وحام ، ثم ذكر أن نوحاً إذ بلغ ٦٠٠ سنة كان الطوفان ، ولسام يومئذ ١٠٠ سنة وقال بعد ذلك : إن سام بن نوح لما كان ابن مائة سنة ولد له ارتكشاد ، لسنتين بعد الطوفان ، فهذا خطأ في عامين ![٩٧] .

وعندما تعدّد التوراة أبناء يعقوب المولودين بالشام ، الذين دخلوا معه مصر ، تذكر أنهم كانوا - من زوجة ليئة - ستة ذكور ، وابنة واحدة ، وأن أولاد الذكور الستة كانوا = ٤ + ٦ + ٣ + ٥ + ٤ + ٣ = ٢٥ فإذا أضفنا إلى هؤلاء : الآباء الستة ، والإبنة : صار المجموع = ٣٢ . ومع ذلك ، فالتوراة تعقب على ذلك قائلة : « هؤلاء بنو ليئة ، وعدد أولادها وبناتها ثلاثة وثلاثون ! »[٩٨] .

لقد كانت هذه الأخطاء وأمثالها مبرراً لابن حزم لكي يعلن أن التوراة التي تشتمل على هذا الخطأ والخلط لا يمكن أن يوثق بنصّها : « فوضح يقيناً لكل مَنْ له أدنى فهم ، يقيناً كما أن

---

(٩٤) السابق ، نفس المصدر .
(٩٥) السابق ١/١٥٩ .
(٩٦) السابق ١/١١٢ ، ١٢٣ .
(٩٧) السابق ١/١٢٤ .
(٩٨) السابق ١/١٥٠

أمس قبل اليوم ، أنها ليست من عند الله ، ولا من إخبار نبي ، ولا من تأليف عالم يتقى الكذب ، ولا من عمل مَنْ يحسن الحساب ، ولا يخطىء فيما لا يخطىء فيه صبي يحسن الجمع والطرح والقسمة والقسمية »[٩٩] .

وهكذا أتاحت له هذه الأخطاء الفرصة للتعرف على مدى علم واضع ذلك النص المحرف للتوراة ، وهو الأمر الذي جعله يعلن سخريته منه حين يقول « إن الذي عمل لهم التوراة التي بأيديهم كان قليل العلم بالحساب ، ثقيل اليد فيه جداً »[١٠٠] .

ب ـ أخـــطاء في التــاريـــخ :

● تذكر التوراة أن الله تعالى قال : « كل من قتل قابيل نفاديه إلى سبعة » ولا تناكر بين جميع فرق اليهود في أن لامك هو الذي قتل قايين جد جد أبيه ، وأنه لم يُقلْ به ، فنسبوا إلى الله تعالى الكذب لأنه وعده أن يفديه إلى السبعة ولم يفده .

وأيضا فإن ذكر السبعة هنا حمق ، لأن لامك الذي قتله هو الخامس من ولد قايين ، وقايين هو الخامس من آباء لامك ، فلا مدخل للسبعة هنا »[١٠١] .

● وقال الله تعالى لابراهيم : أنت تسير لآبائك بسلام ، وتدفن بشيبة صالحة ، والجيل الرابع من البنين يرجعون إلى هنا (أى إلى الشام) ويردّابن حزم بأن الجيل الأول من بني ابراهيم هم اسحاق وإخوته ، والجيل الثاني هم يعقوب وعيصا وبنو أعمامهما ، والجيل الثالث أولاد يعقوب لصلب (يوسف وإخوته) ، والجيل الرابع هم أولاد هؤلاء ومن المعروف ـ تاريخيا ـ أن الجيل الثالث والرابع هم الداخلون من مصر ، لا الخارجون منها بنص توراتهم وإجماعهم كلهم بلا خلاف من أحد منهم .

وإنما رجع إلى الشـام بنص توراتهم واجمـاعهم كلهم : الجيلُ السـادس من أولاد ابراهيم . . وما رجع من الجيل الرابع ، ولا من الجيل الخامس ولا واحد إلى الشام ، وحاشا للّه من أن يكذب في خبره ! »[١٠٢]

---

(٩٩) السابق ١٢٨/١

(١٠٠) السابق ١٨٤/١ .

(١٠١) السابق ١٢١/١

(١٠٢) السابق ١٢٤/١ ، ١٢٥ .

جـ ـ أخـطاء في الجغـرافيا :

● ومن أمثلة ذلك ما ورد في التوراة خاصاً بالأنهار الأربعة الخارجة من الجنة ، وهنا يبيّن ابن حزم فساد هذا النص على أساس علم الهيئة ، ويستشهد بمعلومات صحيحة عن منابع النيل ، ومجرى الفرات كما يعتمد على ما يسمى الآن بالجغرافيا الاقتصادية لكي ينقض ما ورد في التوراة حول وجود اللؤلؤ في بلاد زويلة ، ويقرر أن « بلاد زويلة ليس بها لؤلؤ أصلاً ، وإنما هي في . . بحر فارس ، وبحر الهند »(١٠٣) .

● وفي مجال عدم تحقق النبوءة التي وردت بأن « الله قال لابراهيم لنسلك أُعطى هذا البلد من نهر مصر ، النهر الكبير ، إلى نهر الفرات » يبيّن ابن حزم أن النهر الكبير ، المقصود به نهر الأردن ، وهو من الناحية الجغرافية ليس بكبير ، فهو لا يزيد عن ستين ميلا فقط !(١٠٤)

د ـ طـبائـع العمـران :

يقـرر ابن حزم أن « الـطبيعة لا تستحيـل أبداً ، ولا يمكن تبـدلها عنـد كـل ذي عقل »(١٠٥) ، وهذا معناه الاعتراف بالأساس الضروري الذي تقوم عليه فكرة القانون العلمي . ومن بين مزايا هذا القانون أنه يتيح للإنسان أن يقيس الماضي على الحاضر . وإذا كان هذا أمراً واضحاً في الظواهر الطبيعية ، فإن تطبيقه على حوادث التاريخ يعتبر أحد المنجزات الهامة لدى علماء المسلمين من أمثال ابن حزم ، وبصورة أكثر تكاملاً عند ابن خلدون .

ومن الأمثلة في هذا المجال ما ورد في توراة اليهود من تحويل ماء النيل (كله) إلى دمٍ ، على يد موسى وهارون ، وأن السحرة فعلوا مثل ذلك . وهنا يتساءل ابن حزم : أى ماءٍ بقَى بعد أن تحوّل ماء النيل كله إلى دم حتى يفعل منه السحرة ذلك ؟ فإن ردّوا بأن المصريين حفروا الآبار بجوار النيل ، عاد عليهم بقوله : ومن أين شرب أهل مصر في الفترة ما بين حفر الآبار وتحويل النيل إلى دم ؟!(١٠٦) .

---

(١٠٣) السابق ١/١١٨ ، ١١٩
(١٠٤) السابق ١/١٢٩
(١٠٥) السابق ٥/١٦
(١٠٦) السابق ١/١٥٦ ، ١٥٧ .

ومن ذلك أيضا مبالغة التوراة الشديدة في ذكر عدد بني اسرائيل الخارجين من مصر . وقد قام ابن حزم بتتبع دقيق لتعداد الرجال القادرين على القتال فقط ممن هم فوق العشرين ، وما يتبع ذلك من الأطفال والمسنّين والنساء ، مما يدل بوضوح على عدم احتمال الخبر للصحة .

بل إن ابن حزم يقوم بحصر المساحة التي قُسّمت عليهم ، ومنها يتبيّن أيضا عدم معقولية الخبر »[١٠٧] .

كذلك من الأمور التي تذكرها التوراة عدد المدن التي جرى توزيعها على أبناء يعقوب ، وتقدر « بأربعمائة مدينة غير التي لا يحصيها إلا الله » . ويرد ابن حزم بأن المكان المشار إليه مازال موجوداً حتى الآن ، وهو لا يزيد عن ١٢ × ١٢ ميلا[١٠٨] .

النتيـــجـة :

وهكذا من خلال فحص توراة اليهود فحصاً داخليا وخارجيا تبعاً لأصول منهج النقد التاريخي يتأكد أنها قد تعرضت لضروب كثيرة من التحريف ، وأنها لا تمثل النص الإلهي الذي أنزله الله تعالى ، على موسى ، عليه السلام ، بل إن هذا النص الموجود بأيدي اليهود ليس سوى عمل بشرى محض ، امتلأ بالكثير من الأخطاء ، التي يكفي واحد منها فقط لنزع الثقة من مجموعه .

هذا هو الشق الأول من النتيجة . أما الشق الثاني فهو الخاص بصحة النص القرآني ووثاقته . . والدليل على ذلك أنه لم يتعرض لشيء مما تعرضت له توراة اليهود . وكانت محافظة المسلمين عليه ـ عن طريق الرواية والتدوين المتواترين تحقيقا لقول الله تعالى ﴿ إن علينا جمعه وقرآنه ﴾[١٠٩] وكذلك ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾[١١٠] . وصدق الله العظيم .

ملاحـــظات أخـــيرة :

١ ـ يعتمد منهج النقد التاريخي عند ابن حزم على عناصر كثيرة مستمدة أساساً من منهج علماء

---

(١٠٧) السابق ١/١٦٥ ـ ١٦٨ .

(١٠٨) السابق ١/١٦٨ .

(١٠٩) سورة القيامة ، الآية ١٧ .

(١١٠) سورة الحجر ، الآية ٩ .

الحديث المسلمين ، وخاصة فيما يتعلق بأصول الرواية ، وضرورة اتصالها ، والتثبت من أحوال الناقلين للأخبار . . الخ (نقد السند) .

٢ ـ يمثل منهج ابن حزم في « نقد النصوص » خطوة هامة في مجال تحليل المضمون ، مع عدم إغفال علاقته بالكاتب ، وبظروف العصر الذي كتب فيه .

٣ ـ بالإضافة إلى تحقيق « الجمع بين نقد السند ونقد المتن » ، استعان ابن حزم بمجموعة متنوعة من المعارف ـ أو ما يُطلق عليه في مناهج البحث الحديثة : العلوم المساعدة ـ وهي العلوم التي تساعد الباحث على بلورة الموضوع الذي يتناوله ، من أجل الوصول إلى نتيجة مقبولة .

٤ ـ يُعتبر قياس الماضي على الحاضر في مجال التاريخ بصفة خاصة انجازاً هاما لدى ابن حزم ، وهناك احتمال كبير جداً في أن ابن خلدون قد أفاد من هذه الفكرة في مقدمته الشهيرة .

٥ ـ نتيجة لتطبيق منهج نقد النصوص القديمة تطبيقاً علمياً صحيحاً لدى ابن حزم ، فقد ظلت النتائج التي توصل إليها ، في مجال نقد توراة اليهود ، صحيحة حتى اليوم .